١٥- فتحٌ مبين

المراد بالفتح المبين في رأي جمهور العلماء صُلح الحديبية الّذي كان في شهر ذي القِعدة سنة ستٍّ من الهجرة[١] وكان النّبيّ ﷺ رأي رؤيا في المنام أنّه سيدخل مكّة آمناً لا يخاف ويؤدّي العمرة هو وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ومنهم من يَحْلِق شعر رأسه ومنهم من يُقَصِّر[٢] قصّ النّبيّ ﷺ رؤياه على الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم ففرحوا واستبشروا خيراً[٣] أمر النّبيّ ﷺ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أن يستعدّوا للخروج لأداء العمرة ففعلوا ، وطلب النّبيّ ﷺ ممَّن حوله من الأعراب أن يخرجوا معه خوفاً من غدر قريش فلم يستجيبوا[٤] خرج رسول ﷺ من المدينة المنوّرة معتمراً لا يريد قتالاً [٥] بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب. وساق معه الهدي [٦] سبعين بدنة [٧] وأحرم بالعُمْرَةِ لِيَأْمَنَ النّاسُ من حَرْبه، وليعلم النّاسُ أنّه إنّما خرج زائراً لهذا البيت ومعظِّماً له [٨] وكان جابر بن عبدالله يقول : كنّا أصحاب الحديبية أربع عشرة مئة[٩] وقد أحرم النّبيّ ﷺ من ذي الحليفة ميقات أهل المدينة المنوّرة[١٠].

---

(١) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٣ وانظر تفسير الطّبري ٢٦/٦٨

(٢) انظر السّيرة النّبويّة ٢/٢٧٤

(٣) انظر الجلالين وتفسير ابن كثير ٧/٢٣٧ وتفسير الطّبري ٢٦/٦٨

(٤) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٣

(٥) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٣

(٦) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٣

(٧) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٤

(٨) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٣

(٩) فتح الباري ٧/٤٤٣ حديث رقم ٤١٥٣و٤١٥٤ والسّيرة النّبويّة ٢/٢٦٤

(١٠) فتح الباري ٧/٤٥٣ حديث رقم ٤١٧٨و٤١٧٩ و٧/٤٤٤ حديث رقم ٤١٥٧و٤١٥٨ و٧/٤٤٠و٧/٤٤١ حديث رقم ٤١٥٠ و٤١٥١.

وكان توجّهه ﷺ من المدينة يوم الاثنين مستهلّ ذي القعدة سنة ستّ[١] وقد بعث ﷺ عَيْناً له من خزاعة[٢] حتّى إذا كان ﷺ بِعُسْفان[٣] لقيه بشر بن سفيان الكعبيّ[٤] عَيْنُه [٥]فقال : يا رسول الله هذه قريش قد سَمِعَتْ بمسيرك فخرجوا معهم العُوذ المطافيل[٦]قد لبسوا جلود النّمور ، وقد نزلوا بذي طوى[٧] يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا. وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدّموها إلى كُراع الغميم[٨] طليعة[٩] في مائتي فارس لِيصُدُّوا المسلمين عن التّقدّم[١٠] فقال رسول الله ﷺ : يا ويح قريش . لقد أكلتهم الحرب .ماذا عليهم لو خَلَّوْا بيني وبين سائر العرب . فإن هم أصابوني كان ذلك الّذي أرادوا . وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين . وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة .فما تظنّ قريش . فوالله لا أزال أجاهد على الّذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السّالفة[١١] ثمّ قال : من رجلٌ يخرج

---

(١) فتح الباري ٧/٤٤٠.

(٢) فتح الباري ٧/٤٥٣ حديث رقم ٤١٧٨و٤١٧٩.

(٣) عسفان ، بضمّ أوّله وسيكون ثانيه ثمّ فاء وآخره نون : قرية على مرحلتين من مكة المكرّمة على طريق المدينة المنوّرة . والجحفة على ثلاث مراحل ياقوت.

(٤) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٤.

(٥) نور اليقين ٢١٠.

(٦) جاء في فتح الباري ٥/٣٣٨:" العوذ بضمّ المهملة وسكون الواو بعدها معجمة جمع عائذ، وهي النّاقة ذات اللّبن . والمطافيل : الأمّهات الّلاتي معها أطفالها . يريد أنّهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليتزوّدوا بألبانها ولا يرجعوا حتّى يمنعوه . أو كنى بذلك عن النّساء معهنّ الأطفال"

(٧) ذو طوى ، مثلّث الطّاء وبنون : موضعٌ في داخل مكة المكرّمة حاليّاً .

(٨) كراع الغميم : موضع بين مكّة والمدينة . وهو وادٍ أمام عسفان بثمانية أميال.

(٩) فتح الباري ٥/٣٢٩ حديث رقم ٢٧٣١ و٢٧٣٢.

(١٠) نور اليقين ٢١٠.

(١١) جاء في فتح الباري ٥/٣٣٨:"السّالفة بالمهملة وكسر الّلام بعدها فاء : صفحة العنق . وكنى بذلك عن القتل ... ويحتمل أن يكون أراد أنّه يقاتل حتّى ينفرد وحده في مقاتلتهم " .

بنا على طريق غير طريقهم الّتي هم بها[١]

ورُوِي أنّ رجلاً من أسلم قال : أنا يا رسول الله فسلك بهم طريقاً وَعْراً أَجْرَل[٢] بين شِعاب . فلمّا خرجوا منه، وقد شقّ ذلك على المسلمين ، وأفْضَوْا إلى أرضٍ سَهْلَةٍ عند مُنْقَطَع الوادي ، قال رسول الله ﷺ للنّاس قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه ، فقالوا ذلك . فقال: والله إنّها لَلْحِطّةُ[٣] الّتي عُرِضَتْ على بني إسرائيل فلم يقولوها[٤] فأمر رسول الله ﷺ النّاس فقال: اسلكوا ذات اليمين في طريقٍ تُخْرِجه على ثنيّة[٥] المُرار[٦] مَهْبِط الحديبية[٧] من أسفلِ مكّة . حتّى إذا سلك في ثنيّة المُرار بركت ناقته ، فقال النّاس : خَلَأَت[٨] النّاقة[٩] واسمها القَصْواء[١٠] :" فقال النّبيّ ﷺ : ما خلأت القصواء وما ذاك لها بِخُلُق[١١] ولكن حَبَسَها حابس الفيل ، ثمّ قال:والّذي نفسي بيده لا يسألونني خُطّةً يعظّمون فيها حرمات الله إلاّ أعطيتهم إيّاها . ثمّ زجرها فوثبت. قال : فعدل عنهم حتّى

---

(١) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٤.

(٢) أجرل : كثير الحجارة.

(٣) يريد قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وقولوا حطّة ﴾ سورة البقرة (٥٨) وسورة الأعراف (١٦١) والمعنى : أن تُحطّ عنّا خطايانا.

(٤) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٥.

(٥) الثّنيّة : الطّريق في الجبل .

(٦) المرار : بالضّمّ وتكرير الرّاء: مهبط الحديبية . ياقوت.

(٧) الحديبية ، بضمّ الحاء وفتح الدّال وياء ساكنة وباء موحّدة مكسورة وياء اختلفوا فيها فمنهم من شدّدها ومنهم من خفّفها : قرية سمّيت ببئر هناك عند مسجد الشجرة الّتي بايع رسول الله ﷺ تحتها . وبعض الحديبية في الحلّ وبعضها في الحرم . ياقوت.

(٨) خَلَأَتْ : حَرَنَت وبركت .

(٩) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٥

(١٠) فتح الباري ٥/٣٣٥.

(١١) بِخلق : بِعادة فتح ٥/٣٣٥.

نزل بأقصى الحديبية على ثمد[١] قليل الماء يتبرّضه النّاس تَبَرُّضا[٢] فلم يُلَبِّثْه[٣] النّاس حتّى نزحوه[٤] وشُكِيَ إلى رسول ﷺ العطش ، فانتزع سهماً من كِنانته[٥] ثمّ أَمَرَهم أن يجعلوه فيه ، فوالله مازال يجيش[٦] لهم بالرِّيّ [٧] حتّى صدروا عنه"[٨] .

وقد توالت الرّسل بين الفريقين حتّى انتهى الأمر إلى الصُّلح . ومن هؤلاء الرّسل من بعثته قريش ، ومنهم من بعثه النّبيّ ﷺ . وفي كلّ مرّة يؤكّد النّبيّﷺ أنّه إنّما جاء معتمراً ولم يأت محارباً ، وتؤكّد قريش شروطها ، وأهمّ تلك الشّروط أن لا يدخل النّبيّ ﷺ والمسلمون مكّة المكرّمة في هذا العام.

لقد أتى النّبيّ ﷺ في هذا الشّأن بُدَيْل بن ورقاء الخُزاعي في رجالٍ من خزاعة[٩] ومِكْرَز بن حفص بن الأخيف أخو بني عامر بن لؤيّ . فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال:هذا رجلٌ غادر[١٠]وقد ثبت غدره حينما أراد من المسلمين غِرَّةً في فريق من المشركين فأسرهم المسلمون ومنّ عليهم النّبيّ ﷺ [١١]

---

(١) ثمد ، بفتح المثلّثة والميم أي حفيرة فيها ماء مثمود أي قليل فتح ٣٣٦/٥.

(٢) يَتَبَرَّضه النّاس : يأخذونه قليلاً قليلاً ويجمعونه بأكفّهم . فتح ٣٣٧/٥.

(٣) فلم يلبّثه : فلم يتركوه يلبث أي يُقيم . فتح ٣٣٧/٥.

(٤) نزحوه : أخذوا الماء حتى نَفِد.

(٥) من كنانته : من جَعْبَته الصّغيرة من أَدَم للنّبل .

(٦) يجيش : يفور . فتح ٣٣٧/٥.

(٧) بالرّيّ بكسر الرّاء ويجوز فتحها : بالشّرب والارتواء.

(٨) فتح الباري ٣٢٩/٥ حديث رقم ٢٧٣١و٢٧٣٢وانظر ٤٤١/٧ الأحاديث رقم ٤١٥٠و٤١٥١و٤١٥٢.

(٩) السّيرة النّبويّة ٢٦٦/٢.

(١٠) السّيرة النّبويّة ٢٦٦/٢.

(١١) نور اليقين ٢١٤.

كما أتاه الحُلَيْس بن علقمة سيّد الأحابيش ، وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة . فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال: إنّ هذا من قومٍ يتألّهون[١] فابعثوا الهَدْي في وجهه حتّى يراه. فلمّا رأي الهدي يسيل عليه من عُرْض[٢] الوادي في قلائده[٣] وقد أكل أوباره من طول الحبس عن مَحِلّه[٤] رجع إلى قريش ، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى[٥]واستقبله القوم يلبّون[٦].

ثمّ بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثّقفي[٧]: " فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أَيْ[٨] قوم، واللهِ لقد وفدت على الملوك ، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنّجاشي. والله إن[٩] رأيت مليكاً قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمّد ﷺ محمّداً.والله إن يتنخّم نُخامةً إلاّ وقعت في كفّ رجلٍ منهم فدلك بها وجهه وجلده . وإذا أمرهم ابتدروا أمره . وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وَضُوئه[١٠] وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده. وما يُحِدّون إليه النّظر تعظيماً له. وإنّه قد عرض عليكم خُطّة رُشْدٍ فاقبلوها"[١١]

---

(١) يتألّهون : يتعبّدون ويعظّمون أمر الإله.

(٢) عرض الوادي ، بضم العين : جانبه.

(٣) القلائد : ما يعلّق في أعناق الهدي ليُعْلَم أنّه هدي.

(٤) محلّه : موضعه الّذي ينحر فيه من الحرم.

(٥) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٦.

(٦) فتح الباري ٥/٣٣١ حديث رقم ٢٧٣١و٢٧٣٢.

(٧) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٧.

(٨) أي حرف نداء.

(٩) إن : نافيه.

(١٠) الوضوء ، بفتح الواو : الماء يتوضّأ به.

(١١) فتح الباري ٥/٣٣١حديث رقم ٢٧٣١و٢٧٣٢.

روى أنّ النّبيّ ﷺ بعث إلى قريش خِراش بن أميّة الخزاعي ليبلّغ أشرافهم عنه ما جاء له[١] وبعث النّبيّ ﷺ عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنّه لم يأت لحرب ، وأنّه إنّما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظّماً لحرمته[٢] وقد احتبست قريش عثمان رضي الله تعالى عنه عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أنّ عثمان بن عفّان قد قُتِل[٣] فقال عليه الصّلاة والسّلام : لا نبرح حتّى نناجز القوم، فدعا رسول الله ﷺ النّاس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرّضوان تحت الشجرة، فكان النّاس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت[٤] روى البخاريّ في صحيحه[٥] عن أبي عُبَيْد قال: قلت لِسَلَمَة بن الأكوع: على أيّ شيءٍ بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت . وكان جابر بن عبدالله يقول: إنّ رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفرّ[٦].

وروى البخاريّ في صحيحه[٧] أنّ جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسول اللهﷺ يوم الحديبية: أنتم خير أهل الأرض. وكنّا ألفاً وأربعمائة . ولو كنت أُبْصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة.

ثمّ أتى رسول الله ﷺ أنّ الّذي ذُكِر من أمر عثمان باطل[٨].

---

(١) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٨.

(٢) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٩.

(٣) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٩.

(٤) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٩.

(٥) فتح الباري ٧/٤٤٩حديث رقم ٤١٦٩وانظر ٤٤٨ حديث رقم ٤١٦٧

(٦) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٩.

(٧) فتح الباري ٧/٤٤٣ حديث رقم ٤١٥٤

(٨) السّيرة النّبويّة ٢/٢٦٩.

ثمّ بعثت قريش سهيل بن عمرو،أخا بني عامر بن لؤيّ إلى رسول اللهﷺ وقالوا له ائت محمّداً فصالحه. ولا يكن في صلحه إلاّ أن يرجع عنّا عامه هذا.فوالله لا تُحَدِّثُ العربُ عَنّا أنّه دخلها علينا عَنْوَةً أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو فلمّا رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: قد أراد القوم الصُّلْحَ حين بعثوا هذا الرّجل[1] وقال رسول الله ﷺ: قد سَهُل لكم من أمركم[2] .

وقد تجلّى في موقف قريش وفي شروطها المتعنّتة معنى قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الفتح[3]: ﴿ إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التّقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها . وكان الله بكلّ شيءٍ عليما﴾.

وإليك بعض مظاهر الحميّة الجاهلية ونعرتها ومدى معاناة المسلمين منها، وذلك في هيئة بعض الاقتباسات من صحيح البخاريّ في المقام الأوّل.جاء في صحيح البخاريّ[4]:" فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً . فدعا النّبيّ ﷺ الكاتب،فقال النّبيّ ﷺ :بسم الله الرّحمن الرّحيم:فقال سهيل: أمّا الرّحمن فوالله ما أدري ما هي.ولكن اكتب:باسمك اللّهمّ.كما كنتَ تكتب. فقال المسلمون:والله لا نكتبها إلاّ:بسم الله الرّحمن الرّحيم.فقال النّبيّ ﷺ: اكتب:باسمك اللّهمّ.ثمّ قال:هذا ما قاضى عليه محمّدٌ رسول الله.فقال سهيل: والله لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك.ولكن اكتب:محمد بن عبدالله.فقال النّبيّ ﷺ:والله إنّي لرسول الله وإن كذّبتموني. اكتب:محمّد بن عبدالله.قال الزّهريّ:وذلك قوله:لا يسألونني خُطّةً

---

(١) السّيرة النّبويّة ٢/٢٧٠.

(٢) فتح الباري ٥/٣٣١ حديث رقم ٢٧٣١و ٢٧٣٢.

(٣) الآية٢٦.

(٤) فتح الباري ٥/٣٣١ حديث رقم ٢٧٣١ و ٢٧٣٢.

يعظّمون فيها حرمات الله إلاّ أعطيتهم إيّاها. فقال له النّبيّ ﷺ على أن تُخلُّوا بيننا وبين البيت فنطوفَ به.فقال سهيل: والله لا تتحدّث العرب أنّا أُخِذْنا ضُغْطة[1] ولكن ذلك من العام المقبل . فكتب . فقال سهيلٌ: وعلى أنّه لا يأتيك منّا رجل – وإن كان على دينك – إلاّ رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله . كيف يُرَدّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمروٍ يَرْسُفُ في قيوده،وقد خرج من أسفَلِ مكّة حتّى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.فقال سهيل:هذا يا محمّد أوّل من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ.فقال النّبيّ ﷺ :إنّا لم نَقْضِ الكتاب بعد.قال:فو الله إذاً لم أصالحك على شيءٍ أبداً .قال النّبيّ:فأجزه لي.قال:ما أنا بمجيزه لك.قال: بلى فافعل.قال:ما أنا بفاعل....قال أبو جندل:أي معشر المسلمين،أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ألا ترون ما قد لقيت؟وكان قدُ عذِّب عذاباً شديداً في الله"فقال رسول الله ﷺ :يا أبا جندل،اصبر واحْتسِبْ،فإنّ الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضْعَفِين فَرَجاً ومخرجاً.إنّا قد عَقَدْنا بيننا وبين القوم صُلْحاً.وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله.وإنّا لا نَغْدِرُ بهم[2] " فلمّا فرغ من قضيّة الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه : قوموا فانحروا ثمّ احلقوا . قال:فوالله ما قام منهم رجل.حتّى قال ذلك ثلاث مرّات.فلما لم يقم منهم أحدٌ دخل على أمّ سَلَمة فذكر لها ما لقي من النّاس.فقالت امّ سلمة:يا نبيّ الله،أَتُحِبُّ ذلك؟اخرج ثمّ لا تكلّم أحداً منهم كلمةً.حتّى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك.فخرج فلم يكلّم أحداً منهم حتّى فعل ذلك:نَحَرَ بُدْنَه ودعا حالقة فحلقه.فلمّا رأوا ذلك قاموا فنحروا،وجعل بعضهم يَحْلِق بعضاً.حتّى كاد بعضهم

---

(١) ضغطة بضمّ الضّاد وسكون الغين المعجمتين ثمّ طاء مهملة : قهراً. فتح ٣٤٣/٥.

(٢) السّيرة النّبويّة ٢٧١/٢.

يقتل بعضاً غمّا.ثمّ جاءه نسوةٌ مؤمناتٌ[1]فأنزل الله تعالى[2] ﴿ يا أيها الّذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ فامْتحنُوهنّ . الله أعلم بإيمانهنّ . فإن علمتوهنّ مؤمناتٍ فلا تَرْجعوهُنّ إلى الكفّار . لا هنّ حلٌّ لهم ولا هم يحلّون لهنّ .وآتوهم ما أنفقوا . ولا جناح عليكم أن تنكحوهنّ إذا آتيتموهنّ أجورهنّ . ولا تمسكوا بِعِصَمِ الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا. ذلكم حكم الله يحكم بينكم . والله عليمٌ حيكم. وإن فاتكم شيءٌ من أزواجكم إلى الكفّار فعاقبتم فآتوا الّذين ذهبت أزواجهم مثلما أنفقوا . واتّقوا الله الّذي أنتم به مؤمنون ﴾ فطلّق عمر يومئذٍ امرأتين كانتا له في الشّرك، فتزوّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أميّة.ثمّ رجع النّبيّ ﷺ إلى المدينة.فجاءه أبو بصير رجلٌ من قريشٍ وهو مسلم.فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا:العَهْدَ الّذي جعلت لنا.فدفعه إلى الرّجلين.فخرجا به حتّى بلغا ذا الحليفة،فنزلوا يأكلون من تمرٍ لهم.فقال أبو بصير لأحد الرّجلين:والله إنّي لأرى سيفك هذا يا فلان جيّداً.فاستلّه الآخر فقال:أجل والله إنّه لجيّد.لقد جرّبت به ثمّ جرّبت به ثمّ جربّت.فقال أبو بصير: أريني أنظر إليه.فأمكنه منه،فضربه حتّى بَرَد[3]وفرّ الآخر حتّى أتى المدينة.فدخل المسجد يعدو.فقال رسول الله ﷺ حين رآه:لقد رأى هذا ذُعْراً[4].فلمّا انتهى إلى النّبيّ ﷺ قال:قُتِل والله صاحبي وإنّي لمقتول.فجاء أبو بصير فقال:يا نبيّ الله.قد والله أوفى الله ذمّتك،قد رددتني إليهم ثمّ أنجاني الله منهم.قال النّبيّ ﷺ:ويلُ امّه مِسْعَرَ حربٍ لو كان له أحد[1] فلمّا سمع ذلك

---

(١) انظر هنا – مثلاً – فتح الباري ٤٥٣/٧ حديث رقم ٤١٨٠و٤١٨١.

(٢) سورة الممتحنة ١٠و١١وقد أكملنا الآيتين الكريمتين .

(٣) حتّى برد: بفتح الموحّدة والرّاء : أي خَمَدَتْ حواسّه ، وهي كناية عن الموت . فتح ٣٤٩/٥.

(٤) ذعراً : خوفاً . فتح ٣٤٩/٥.

(١) مسعر حرب أي يسعرها . فتح ٣٥٠/٥ وجاء في السّيرة النّبويّة ٢٧٥/٢ القول :" ويلُ أمّه مِحَشّ حرب لو كان معه رجال " والمعنى واحد.

عرف أنّه سيردّه إليهم.فخرج حتّى أتى سِيفَ البحر[٢] قال:وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بَصِير.فجعل لا يخرج من قريش رجلٌ قد أسلم إلاّ لحق بأبي بَصير.حتّى اجتمعت منهم عِصابة.فوالله ما يسمعون بِعِير خرجت لقريش إلى الشّأم إلاّ اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم.فأرسلت قريشٌ إلى النّبيّ ﷺ تناشده الله والرّحمَ لَما أرسل فمن أتاه فهو آمن . فأرسل النّبيّ ﷺ إليهم "[٣].

وهكذا قُضِي على أحد الشروط الّتي أراد المشركون أن تكون في صالحهم،فإنّهم هم الّذين رَجَوْا النّبيّ ﷺ أن يضمّ إليه القرشيّين الّذين أسلموا . أمّا المؤمنات فإنّ الله تعالى هو الّذي قضي بحقّ الشّرط في حقّهنّ إذا ثبت إيمان المهاجرات منهنّ : "وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدّت بعد إيمانها"[٤].

ومن شروط صلح الحديبية :" أنّه من أحبّ أن يدخل في عَقْد محمّد وعهده دخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . فتواثبت خزاعة فقالوا:نحن في عقد محمّدٍ وعهده.وتواثبت بنو بَكْر فقالوا: نحن في عقد قريشٍ وعهدهم"[٥]

وبفضل الله تعالى قد تأكّد لاحقاً أنّ الشّروط كلّها كانت في صالح المسلمين.

" وكانت حميّتهم أنّهم لم يُقرُّوا أنّه نبيّ الله ، ولم يُقِرّوا ببسم الله الرّحمن الرّحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت"[٦]

---

(٢) سِيف البحر : ساحله . فتح ٥/٣٥٠.

(٣) فتح الباري ٥/٣٣٢ حديث ٢٧٣١و٢٧٣٢.

(٤) فتح الباري ٥/٣٣٣حديث رقم ٢٧٣٣.

(٥) السّيرة النّبويّة ٢/٢٧١.

(٦) فتح الباري ٥/٣٣٣حديث رقم ٢٧٣١و٢٧٣٢.

وروى البخاريّ في صحيحه[1] أنّ عائشة رضي الله عنها زوج النّبيّ ﷺ قالت: إنّ رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر من المؤمنات بهذه الآية[2]: ﴿ يا أيها النّبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنّ ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولا يعصينك في معروفٍ فبايعهنّ واستغفر لهنّ الله . إنّ الله غفور رحيمٌ ﴾.

ممّا سبق يتبيّن أن سورتي الفتح والممتَحَنة لهما عَلاقَةٌ مباشرةٌ بصلح الحديبية. وإنّ كلاً من سورة الفتح وآياتِ سورة الممتحنة بحاجةٍ إلى تفسير موجز. وهذه هي سورة الفتح ابتداءً.

سبب النّزول :

روى البخاريّ في صحيحه[3]عن زيد بن أسلم عن أبيه أنّ رسول اللهﷺكان يسير في بعض أسفاره[4]وعمر بن الخطّاب يسير معه ليلاً فسأله عمر ابن الخطّاب عن شيءٍ فلم يُجِبْه رسول اللهﷺ،ثمّ سأله فلم يجبه ثمّ سأله فلم يُجِبْه. فقال عمر بن الخطاب: ثَكِلَتْ أُمُّ عمر[5] نَزَرْتَ[6]رسول الله ﷺ ثلاث مرّات،كلَّ ذلك لا يجيبك.قال عمر: فحرّكت بعيري ثمّ تقدّمت أمام النّاس وخشيت أن ينزل فِيَّ القرآن.فما نَشِبْتُ[7] أن سَمِعْتُ صارخاً يصرُخ بي . فقلت: لقد خشيت أن يكون نزلَ فِيّ قرآن . فجئت رسول الله ﷺ فسلّمتُ عليه ،

---

(١) فتح الباري ٤٥٤/٧ حديث رقم ٤١٨٢.

(٢) سورة الممتحنة (١٢) وقد أكملنا الآية الكريمة.

(٣) فتح الباري ٥٨٢/٨ حديث رقم ٤٨٣٣ وانظر ٤٥٢/٧ حديث رقم ٤١٧٧.

(٤) اختلف في المكان الّذي نزلت فيه السّورة الكريمة . فقيل بضَجْنان ، وهي بفتح المعجمة وسكون الجيم ونون خفيفة ، وقيل بكُراع الغَميم ، وقيل بالجُحْفة. والأماكن الثّلاثة متقاربة . فتح ٥٨٣/٨.

(٥) الثّكل: فقدان المرأة ولدها. دعا عمر على نفسه بسبب ما وقع منه من الإلحاح. ويحتمل أن يكون لم يرد الدّعاء على نفسه حقيقة ، وإنّما هي من الألفاظ الّتي تقال عند الغضب من غير قصد معناها. فتح ٥٨٣/٨.

(٦) نزرت: ألْحَحْتَ عليه . فتح ٥٨٣/٨.

(٧) فما نَشِبت : فلم أتعلّق بشيءٍ غير ما ذكرت . فتح ٥٨٣/٨.

فقال: لقد أُنْزِلَتْ عليَّ اللَّيْلَةَ سورةٌ لَهِيَ أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس . ثم قرأ: ﴿ إنّا فتحنا لك فَتْحاً مبيناً ﴾

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾

إنّا فتحنا لك يا محمّد فتحاً مبينا ، ونصراً عظيماً ، بصلح الحديبية الّذي أدّى بدوره إلى فتح مكّة المكرّمة ، فتح الفتوح. عن جابر بن عبدالله قال: ما كنّا نعدّ الفتح إلاّ يوم الحديبية[1] وعن البراء بن عازب قال: تعدّون أنتم الفتح فتح مكّة . وقد كان فتح مكّة فتحاً . ونحن نعدّ الفتح بيعة الرِّضوان يوم الحديبية[2] إنّا فتحنا لك يا محمّد فتحاً مبيناً لتقوم بما يجب عليك من شكرٍ لله تعالى على نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة ، ليغفر الله تعالى لك ما تقدّم مِن ذنبك قبل الفتح ، وما تأخّر بعده ، وليتمّ نعمته عليك بإكمال دين الإسلام الّذي بعثك به ورضيه لعباده، وليهديك صراطاً مستقيماً وطريقاً قويماً، يفضي إلى النّعيم المقيم، في جنّات النّعيم . ولينصرك الله تعالى على عدوّه وعدوّك في كلّ المواطن ، نصراً عزيزاً وغاليا.

---

(١) تفسير الطّبري ٤٤/٢٦ وتفسير ابن كثير ٣٠٧/٧.

(٢) فتح الباري ٤٤١/٧ حديث رقم ٤١٥٠ وتفسير الطّبري ٤٤/٢٦ وتهذيب الأسماء واللّغات ١٣٢/١ وانظر فتح الباري ٥٨٣/٨ حديث رقم ٨٣٤

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

الله تعالى هو الّذي أنزل السّكينة والطّمأنينة[1] في قلوب المؤمنين الّذين شهدوا صلح الحديبية وأطاعوا الله تعالى وأطاعوا الرّسول ﷺ بالرّضا بالصُّلْح وبِشروطه الّتي تبدو مُجْحِفَةً للّنظرة العَجْلي ، والحقيقة أنّها في صالح المسلمين، بدليل أنّ النّبيّ ﷺ كان معه في الحديبية زهاء ألفٍ وأربعمائة شخص، بينما كان معه في فتح مكّة في شهر رمضان سنة ثمان عشرة آلاف[2] أي بعد أقل من سنتين اثنتين .أنزل الله تعالى السّكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم. ولله تعالى جنود السّماوات والأرض الّتي لا يعلمها إلاّ هو. وكان الله تعالى عليماً لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ، حكيماً في كلّ أقواله وأفعاله جلّ وعلا.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٦/٤٥.

(٢) انظر – مثلاً– فتح الباري ٧/٤٤٢ والسّيرة النّبويّة ٢/٢٧٤.

أمر الله تعالى بالجهاد[1] في سبيله ليدخل عزّ وجلّ المؤمنين والمؤمنات جنّاتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها أنواع الأنهار، خالدين فيها ابداً ، ويكفّر عنهم سيّئاتهم ويمحوها ، وكان الخلود في جنّات النّعيم عند الحقّ جلّ وعلا فوزاً عظيماً ، ونجاحاً كبيراً.

لقد أمر الله تعالى بالجهاد في سبيله ليثيب المؤمنين والمؤمنات، وليعذّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظّانّين بالله تعالى ظنّ السَّوْءِ أَنَّه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يُظْهِرَ كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به[2] عليهم دائرة السَّوء ودائرةُ العذاب تدور عليهم به[3] وغضب الله تعالى عليهم ، ولعنهم بطردهم من رحمته عزّ وجلّ ، وأعدّ لهم جهنم يوم القيامة، وساءت جهنّم مصيراً وعاقبة.

ولله تعالى جنود السّماوات والأرض وكان الله تعالى عزيزاً في ملكه، حكيماً في صنعه .

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩ ﴾

إنّا أرسلناك أيّها الرّسول الكريم، والنّبيّ العظيم ، شاهداً على أمّتك بأنّك بلغت الرّسالة ، وأدّيت الأمانة، وكنت دائماً وأبداً النّاصح الأمين ، ومبشّراً المؤمنين بجنّات النّعيم ، ومنذراً الكافرين بنار الجحيم.

---

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٦٧/١٢ والجلالين .

(٢) تفسير الطّبري ٤٦/٢٦.

(٣) تفسير الطبري ٤٦/٢٦ ولسان العرب : "سوأ "

إنّا أرسلناك يا محمّد لتؤمنوا أيّها النّاس بالله تعالى، وبرسوله محمّد ﷺ ولتنصروا الله تعالى أيّها المؤمنون[1] وتعظّموه[2] وتسبّحوه جلّ وعلا بكرةً وأصيلا ، وتذكروه عزّ وجلّ ذكراً كثيراً في جلّ الأوقات وأغلب الأحوال.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمَۢا ١٠ ﴾

الآية الكريمة متعلِّقةٌ بمبايعة الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم النّبيّ ﷺ بالحديبية بعد أن جاء النّبيّ ﷺ الخبر بأن قريشاً قتلت عثمان رضي الله تعالى عنه الّذي بعثه الرّسول ﷺ ليخبرهم أنّه عليه الصّلاة والسّلام إنّما جاء معتمراً وليس مقاتلاً. وقد تبيّن لاحِقاً أنّ ما قيل عن عثمان ﷺ باطل . إنّ الّذين يبايعونك يا محمّد في الحديبية على ألاّ يفرّوا عند لقاء العدوّ ولا يولّوهم الأدبار إنّما يبايعون ببيعتهم إيّاك الله لأنّ الله ضَمِن لهم الجنّة بوفائهم له بذلك[3] فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسولهﷺ[4] يد الله تعالى فوق أيديهم، بالعون والتّأييد، والإرشاد والتّسديد. فمن نكث بيعته إيّاك يا محمّد ونقضها فلم ينصرك على أعدائك وخالف ما وعد ربّه[5] فإنّما ينكث على نفسه، لأنّ وبال نقض الميثاق مرتدٌّ عليه. وَمَنْ أَوْفَى بما عاهد الله تعالى عليه حتّى اسْتُشْهِدَ في سبيل الله تعالى

(١) تفسير الطّبري ٤٧/٢٦ والجلالين.

(٢) تفسير الطّبري ٤٧/٢٦ والجلالين.

(٣) تفسير الطّبري ٤٧/٢٦

(٤) تفسير ابن كثير ٣١٢/٧.

(٥) تفسير الطّبري ٤٨/٢٦

أو نال النّصر فإنّ الله تعالى سوف يؤتيه يوم القيامة أجراً عظيماً ، بالخلود في جنات النّعيم .

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

سيقول لك يا محمّد المتخلّفون عن الخروج معك من الأعراب الّذين دعوتهم إلى الخروج معك فلم يستجيبوا شغلتنا أموالنا الّتي نستصلحها، وأهلونا الّذين نرعى مصالحهم ونخشى عليهم الأعداء،عن الاستجابة لندائك ، فاستغفر الله تعالى لنا. يقول أولئك المخلّفون من الأعراب بألسنتهم ما ليس في قلوبهم الّتي اطّلع الله تعالى على ما تُضْمِر . قل لهم يا محمّد: إن أنا استغفرت لكم أيّها القوم ثمّ أراد الله هلاككم أو هلاك أموالكم وأهليكم ، أو أراد بكم نفعاً بتثمير أموالكم وإصلاحه لكم أهليكم ، فمن ذا الّذي يقدر على دفع ما أراد الله بكم

من خيرٍ أو شرّ ، والله لا يعازّه أحد ، ولا يغالبه غالب[1] الحقيقة أنّ الله تعالى كان دائماً وأبداً خبيراً بما تعملون. والحقيقة أنّكم ظننتم أنّ الرّسول ﷺ والمؤمنين لن ينقلبوا إلى اهليهم أبداً سالمين ، وزيّن الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسُّوء ذلك الظّنّ السَّيّئ في قلوبكم المريضة، وظننتم ظنّ السَّوْء بأنّ المسلمين سيبيدون عن بكرة أبيهم ، ولن تقوم للمسلمين قائمة.لقد كنتم في الحقيقة قوماً هلكى لا يصلحون لشيءٍ من الخير[2].

ومن لم يؤمن بالله تعالى إيماناً مطلقاً،ومن لم يؤمن برسوله ﷺ إيماناً مطلقاً، فإنّا أعددنا[3] للكافرين ناراً تستعر عليهم في جهنّم إذا وردوها يوم القيامة[4].

ولله تعالى ملك السّماوات والأرض ، يغفر لمن يشاء أن يقبل توبته النّصوح، ويعذّب من يشاء تعذيبه . وكان الله تعالى دائماً وأبداً غفوراً لمن تاب توبةً نصوحاً ، رحيماً بعباده المؤمنين أن يعذّبهم بعد قبول توبتهم.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

سيقول المخلّفون من الأعراب الّذين لم يستجيبوا للنّبيّ ﷺ وقد دعاهم للخروج معه لأداء العمرة ودرء أذى قريش لو فَكَّرَتْ في الغدر بالمسلمين، إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها في خبير، ذرونا نتّبعكم كي نشترك معكم في أخذ

(١) تفسير الطّبري ٤٨/٢٦

(٢) تفسير الطّبري ٤٩/٢٦

(٣) تفسير الطّبري ٤٩/٢٦

(٤) تفسير الطّبري ٤٩/٢٦

الغنيمة، يريدون أن يبدّلوا. كلام الله تعالى الّذي قال من قبل بأنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية وَحْدَهُمْ [1] قل يا محمّد لن تتّبعونا من أجل الاشتراك في أخذ الغنيمة ، فقد وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم [2] إنّهم سيقولون : الحقيقة أنّكم تحسدوننا لذا تمنعوننا من الاشتراك معكم في الغنيمة . الحقيقة أنّ هؤلاء الّذين تخلّفوا عن الحديبية وأصرّوا على غنائم خيبر لا يكادون يفقهون ممّا يقال لهم من أمر الدّين إلاّ يسيراً[3] فأعرض عنهم يا محمّد ولا تهتمّ لهم ولا تأبه بهم.

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

قل يا محمّد للمخلَّفين عن الحديبية من الأعراب ستدعون إلى قومٍ أولى بأسٍ شديدٍ وبطشٍ أكيد مثل بني حنيفة قوم مسيلمة الكذّاب[4] وفارس والرّوم[5] تقاتلونهم إن أصرّوا على دينهم وعلى عدم دفع الجزية أو يسلمون فيكونون إخوةً لكم . فإن تطيعوا بالجهاد في سبيله عزّ وجلّ يؤتكم أجراً حسناً، وإن تتولوا عن الجهاد في سبيل الله تعالى وتعرضوا كما تولّيتم من قبل وأعرضتم

(١) انظر تفسير الطّبري ٥١/٢٦.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣٢٠/٧.

(٣) انظر تفسير الطّبري ٥١/٢٦.

(٤) انظر السّيرة النّبويّة ٢٧٣/٢ وتفسير الطبري ٥٠/٢٦.

(٥) انظر الجلالين وتفسير الطّبري ٥٢/٢٦ وتفسير ابن كثير ٣٢٠/٧.

يعذّبكم الله تعالى عذاباً مؤلما، لأنّكم ليس لكم عذرٌ إن نكصتم عن الجهاد في سبيل الله تعالى.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

ليس على ذوي الأعذار حرجٌ وضيقٌ وإثم[1] إذا تخلّفوا عن الجهاد في سبيل الله تعالى. إنّه ليس على الأعمى إثمٌ ولا على الأعرج إثمٌ ولا على المريض إثمٌ إذا لم يلبّ داعي الجهاد في سبيل الله تعالى بسبب عذره. ومن يطع الله تعالى ويطع رسوله ﷺ طاعةً مطلقةً يدخله جنّاتٍ تجري من تحت أشجارها وقصورها أنواع الأنهار. ومن يعرض عن الاستجابة لداعي الجهاد في سبيل الله تعالى يعذّبه عذاباً أليما.

﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

لقد رضي الله تعالى عن الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم إذ يبايعونك يا محمّد بيعة الرّضوان في صلح الحديبية تحت الشّجرة. وكانت سَمُرة بأرض

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : "حرج " ١٤٧/١.

الحديبية[١] والجمع سَمُر ، وهو ضربٌ من شجر الطَّلْح[٢] والطّلح: شجرٌ عِظام من شجر العِضاه ترعاه الإبل[٣] والعِضاه: كلّ شجر له شوكٌ صغر أو كبر. الواحدة عِضاهة[٤] وكانوا ألفاً وأربعمائة[٥] وسبب البيعة ما جاء عن عثمان ﷺ بأنّ قريشاً قد قتلته ، وكان ﷺ قد بعثه إليها ليخبرها أنه عليه الصّلاة والسّلام إنّما جاء معتمراً. ثمّ تبيّن أنّ ما جاء عن عثمان باطل. فكان النّاس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبدالله يقول: إنّ رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت. ولكن بايعنا على أن لا نفرّ[٦].

لقد علم الله تعالى ما في قلوبهم من صدق الإيمان والعزيمة فأنزل الطّمانينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، وذلك فيما قيل خيبر[٧] وأثابهم كذلك مغانم كثيرة سوف يأخذونها مستقبلاً. وكان الله تعالى عزيزاً في ملكه حكيماً في صنعه.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢٠ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٢١/٧ وتفسير الطّبري ٥٤/٢٦و٥٥ وانظر فتح الباري ٤٤٧/٧ الأحاديث ٤١٦٢و٤١٦٣و٤١٦٤و٤١٦٥.

(٢) المعجم الوسيط : " سمر ".

(٣) المعجم الوسيط : "طلح ".

(٤) المعجم الوسيط :"عضه"

(٥) انظر فتح الباري ٤٤٣/٧ حديث رقم ٤١٥٤ وتفسير الطّبري ٥٤/٢٦.

(٦) السّيرة النّبويّة ٢٦٩/٢.

(٧) تفسير الطّبري ٥٥/٢٦.

وَعَدَكُمُ الله تعالى أيّها المؤمنون بقيادة محمّدﷺ مغانم كثيرة تأخذونها مستقبلاً فعجّل لكم هذه. والمراد غنائم خيبر[١] وكانت غزوة خيبر في المحرّم سنة سبع[٢] وكان فتح خيبر في صفر[٣] وكفّ الله تعالى أيدي المشركين عنكم وعن عيالكم حينما سرتم من المدينة مع رسول الله ﷺ إلى مكّة[٤] وليكون كفّه تعالى ذِكْرُهُ أيديهم عن عيالهم آيةً وعبرةً للمؤمنين به فيعلموا أنّ الله هو المتولّى حياطتهم وكلاءتهم في مشهدهم ومغيبهم[٥] ويهديهم الله تعالى دائماً وابداً طريقاً مستقيماً يُفْضِي إلى جنّات النّعيم.

كذلك وعدكم الله تعالى فتح مدينة أخرى مستقبلاً لم تقدروا عليها الآن، وهي مكّة المكرّمة[٦] قد أحاط الله تعالى علماً بها حتّى يفتحها لكم[٧] وكان الله تعالى قديراً على كلّ شيء، فلا يعجز الله تعالى شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

والمعروف أنّ نقض قريش أحد شروط صلح الحديبية السَّبب في فتح النّبيّ ﷺ مكّة المكرّمة. لقد أعانت قريش بني بكر حلفاءها في صلح الحديبية، على الغدر بخزاعة حلفاء النّبيّ ﷺ في ذلك الصُّلح. لقد كان فتح مكّة بفضل الله تعالى بعد أقل من عامين اثنين من صلح الحديبية ولله تعالى الحمدُ والمنّة.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٦/٥٥.

(٢) السّيرة النّبويّة ٢/٢٧٩.

(٣) السّيرة النّبويّة ٢/٢٨٩.

(٤) انظر تفسير الطبري ٢٦/٥٦و٥٧ وتفسير ابن كثير ٧/٣٢٢.

(٥) تفسير الطّبري ٢٦/٥٧.

(٦) تفسير الطّبري ٢٦/٥٨ وانظر السّيرة النّبويّة ٢/٣٣٠ في أسباب فتح مكّة .

(٧) تفسير الطّبري ٢٦/٥٧.

﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣ ﴾

ولو قاتلكم أيّها المؤمنون كفّار قريش زمن الحديبية لولّوا الأدبار وانهزموا شرّ هزيمة، ثمّ لا يجدون من دون الله تعالى وليّاً يرعى مصالحهم، ولا نصيراً ينصرهم.

سنّ الله تعالى في ذلك سُنّة[1] قد خلت من قبل، ومضت في الأمم الكافرة السّابقة. ولن تجد لسنّةِ الله تعالى تبديلاً ولا تغييرا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٗا ٢٤ ﴾

الله سبحانه وتعالى هو الّذي كفّ أيدي كفّار قريش عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكّة بالحديبية[2] من بعد أن أظفركم الله تعالى عليهم أيّها المؤمنون. وكان الله تعالى بصيراً بما تعملون، فلا يخفى على الله تعالى شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. جاء في صحيح مسلم[3]في سبب نزول الآية الكريمة عن أنس بن مالك أنّ ثمانين رجلاً من أهل مكّة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التّنعيم متسلّحين يريدون غِرّة[4]النّبيّ ﷺ وأصحابه فأخذهم سَلَماً[5]

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير الطّبري ٥٨/٢٦.

(٣) ١٤٤٢/٣ حديث رقم ١٨٠٨.

(٤) غرّة : غفلة.

(٥) سَلَماً بفتحتين : استسلاماً وإذعاناً . وسِلْما بكسر فسكون: أَسْرا . وقد قرئ بالرّوايتين.

فاستحياهم[1] فأنزل الله عزّ وجلّ الآية الكريمة.

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٢٦ ﴾

كفّار قريش هم الّذين كفروا بالله تعالى وصدّوكم أيّها المؤمنون عن المسجد الحرام في الحديبية، وصدّوا الهدي[2] محبوساً[3] عن أن يبلغ مَحِلَّه [4] أي محلّ نحره[5] وكان رسول الله ﷺ ساق معه حين خرج إلى مكة في سفرته تلك سبعين بَدَنة[6] ولولا رجالٌ مؤمنون موجودون[7] ونساءٌ مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم بخيلكم ورَجِلِكُمْ لم تعلموهم بمكّة، وقد حبسهم المشركون بها عنكم فلا

(١) فاستحياهم : ترك الأسرى أحياء فلم يقتلهم.

(٢) تفسير الطّبري ٦٠/٢٦.

(٣) تفسير الطّبري ٦٠/٢٦.

(٤) تفسير الطّبري ٦٠/٢٦ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٨٣/١٢.

(٥) تفسير الطّبري ٦٠/٢٦.

(٦) تفسير الطّبري ٦٠/٢٦.

(٧) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٨٣/١٢ والجلالين .

يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم فتقتلوهم [١] من غير قصدٍ منكم، فتصيبكم منهم معرّةٌ وإثمٌ[٢] ومساءةٌ[٣] وغرامة[٤] بغير علم منكم لأذن لكم في الفتح[٥] ولكن لم يؤذن لكم في الفتح لِيُدْخِل الله تعالى في رحمته مِن يشاء دخوله فيها باعتناق دين الإسلام[٦]وما أكثر الّذين اعتنقوه في أثناء تلك الفترة. لو تميّز المؤمنون عن الكفّار[٧] لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً مؤلما.وحذف جواب لولا استغناءً بدلالة الكلام عليه[٨].

لو تميّز المؤمنون لعذّبنا الّذين كفروا بتسليطكم عليهم حين[٩]جعل الّذين كفروا في قلوبهم حميّة الجاهليّة، وأنفتها الكاذبة[١٠]وذلك أنّهم لم يقرّوا أنّه نبيّ الله، ولم يقرّوا ببسم الله الرّحمن الرّحيم، وحالوا بينه وبين البيت[١١] فأنزل الله تعالى طمأنينته على رسولهﷺ وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التّقوى، وهي شهادة أن لا إله إلاّ الله محمّدٌ رسول الله[١٢] وكانوا أحقّ بها وأهلها. وكان الله

---

(١) تفسير الطّبري ٦٥/٢٦.

(٢) تفسير الطّبري ٦٥/٢٦.

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه٨٥/١٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٣٢٥/٧

(٥) الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٨٤/١٢

(٦) انظر –مثلاً– تفسير ابن كثير ٣٢٥/٧.

(٧) الجلالين.

(٨) تفسير الطّبري ٦٥/٢٦

(٩) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٨٥/١٢.

(١٠) انظر الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٨٥/١٢ ومفردات الرّاغب الأصفهاني:" حمى " ١٧٥/١.

(١١) فتح الباري ٣٣٣/٥حديث رقم ٢٧٣١و٢٧٣٢.

(١٢) تفسير الطّبري ٦٦/٢٦

تعالى بكلّ شيءٍ عليماً. روى البخاريّ في صحيحه[1] عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال لنا أنّ رسول الله ﷺ يوم الحديبية: أنتم خيرُ أهل الأرض.

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾

لقد صدق الله تعالى رسوله محمّداً ﷺ الرّؤيا الّتي رآها بالحقّ فزار ﷺ هو والصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين البيت الحرام سنة سبعٍ من الهجرة في عمرة القضاء[2] تنفيذاً لأحد شروط الحديبية. لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله تعالى آمنين لا تخافون، محلّقين رءوسكم بعد أداء النُّسك ومقصّرين . فعلم عزّ وجلّ مالم تعلموا من المصلحة في صرفكم عن مكّة ودخولكم إليها عامكم ذلك مالم تعلموه أنتم[3] فجعل عزّ وجلّ من دون ذلك وقبله فتحاً قريباً. قال بعضهم: هو الصّلح الّذي جري بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش[4] عن الزّهريّ: ما فُتِحَ في الإسلام فتحٌ كان أعظم منه[5] وقال بعضهم هو فتح خبير[6] والله تعالى أعلم.

---

(١) فتح الباري ٤٤٣/٧ حديث رقم ٤١٥٤.

(٢) انظر – مثلاً– السّيرة النّبويّة ٣١٤/٢ وفتح الباري ٤٩٩/٧ حديث رقم ٤٢٥١و٤٢٥٢ وتفسير ابن كثير ٣٣٧/٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٣٤١/٧

(٤) تفسير الطّبري ٦٨/٢٦

(٥) تفسير الطّبري ٦٨/٢٦

(٦) تفسير الطّبري ٦٩/٢٦ والسّيرة النّبويّة ٢٧٤/٢

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

الله تعالى هو الّذي أرسل رسوله محمّداً ﷺ بالهدى من الضّلالة ، ودينِ الحقّ ، دينِ الإسلام الّذي أكمله الله تعالى ورضيه لنا ، وأتمّ به النّعمة علينا، ليظهره عزّ وجلّ على الدّين كلّه ، السّماويّ ، ومن باب الأولى غير السّماوي. وحسبك بالله تعالى شاهداً[1] وكفى بالله تعالى شهيداً بأنّ دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ سوف يظهر على الأديان كلّها بدون استثناء شهيداً: حال منصوبة أو تمييز[2].

﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

كما شهد الحقّ جلّ وعلا بأنّ دين الإسلام سيظهر على جميع الأديان السّماويّة وغير السّماوية، شهد بأنّ محمّداً ﷺ رسول الله تعالى. والّذين مع النّبيّ ﷺ من الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، أشدّاء على الكفّار بالله تعالى

(١) تفسير الطّبري ٢٦/٦٩.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/٨٧.

وبالرّسول ﷺ. رحماء بينهم، يذوب المسلم لأخيه فَرْطَ رِقَّةٍ وفَيْضَ حنان.تراهم أيّها الإنسان ركّعاً سجّداً في صلاة الجماعة والفرد، الفرض والنّفل. يبتغون من الله تعالى مزيد فضلٍ ورضوان. علامتهم[١] في وجوههم من أثر السّجود في الصّلاة وفي غير الصّلاة. روى ابن ماجة في سُننه[٢] عن جابر ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: من كثرت صلاته باللّيل، حَسُن وجهه بالنّهار.ذلك مَثَلُهُمْ وصفتهم في التّوراة[٣]الّتي أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه الصّلاة والسّلام.

ومَثَلُهُمْ وصفتهم في الإنجيل الّذي أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام كزرعٍ أخرج شطأه وفراخه وما خرج منه وتفرّع في جانبيه[٤] وكشجر أخرج غصونه[٥] فَقَوَّى[٦] الشَّطءُ الزّرع، والغصنُ الشّجر فكذلك أصحاب محمّد ﷺ آزروه وأيّدوه ونصروه فهم معه كالشّطء مع الزّرع[٧] والغصن مع الشّجر.فَغَلُظ الزّرع[٨]وشبّ وطال[٩]فقوي واستقام[١٠] واستوى على أصوله وسوقه[١١]يعجب الزَّرْعُ الزُّرّاع،الّذين حَرَثوا،ووَضَعُوا البُذور،وزرعوا،وسَقَوْا،ورَعَوْا.وكذلك المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ قد اشتدّ عودهم، وقوي ساعدهم ، وقد اغتاظ بهم الكفّار الّذين أدركوا يقيناً أنّ

---

(١) تفسير الطبري ٢٦/٧٠.

(٢) ١/٤٢٢ حديث رقم ١٣٣٣.

(٣) تفسير الطبري ٢٦/٧١

(٤) انظر تفسير الطّبري ٢٦/٧١ ومفردات الرّاغب الأصفهاني :"شطا" ١/٣٤٤.

(٥) انظر لسان العرب :"شطأ".

(٦) تفسير الطّبري ٢٦/٧٢

(٧) تفسير ابن كثير ٧/٣٤٣

(٨) تفسير الطّبري ٢٦/٧٢

(٩) تفسير ابن كثير ٧/٣٤٣

(١٠) الجلالين.

(١١) الجلالين

المسلمين يستطيعون اليوم أن يقولوا ما يريدون، وأن يفعلوا ما يقولون. ولله تعالى وَحْدَهُ دون سواه الحمدُ والمِنّة.

وعد الله تعالى الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات منهم مغفرةً لذنوبهم، وأجراً عظيماً على أعمالهم الصّالحة،والجهاد في سبيل الله تعالى بالنّفْس والنّفيس.

وبعد الانتهاء بفضل الله تعالى من تفسير سورة الفتح الّتي تحدّثت باستفاضةٍ عن صُلْح الحديبية وملابساته، نتحوّل مستعينين بالله تعالى إلى تفسير الآيات الكريمات من سورة الممتحنة الّتي لها عَلاقةٌ بأحد شروط صلح الحديبية المتعلّق باستعادة قريش من جاء منهم إلى النّبيّ ﷺ مسلماً . لقد استثنت السّورة الكريمة المؤمنات من هذا الشّرط كما بيّنت الكيفيّة الّتي يبايع بها النّبيّ ﷺ المهاجرات المؤمنات. وذلك في الآيات الكريمات من العاشرة حتّى الثّانية عشرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ
فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ
فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ
وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ
ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ
أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى

ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾

يا أيّها الّذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ إلى المدينة المنوّرة ممّن شملهنّ شرط الحديبية بعودة مَنْ جاء مسلماً إلى قريش فاختبروا إيمانهنّ. الله تعالى أعلم بحقيقة إيمانهنّ ، إنّما لكم الظّاهر. فإن علمتموهنّ مؤمناتٍ فلا ترجعوهنّ إلى الكفّار. لا هنّ حلٌّ لهم زوجات، ولا هم يحلّون لهنّ أزواجاً. عن قتادة أنّه ﷺ كان يمتحن من هاجر من النّساء : بالله ما خرجت إلاّ رغبةً في الإسلام وحبّاً لله ورسوله[١] وروى أنّ الّذي كان يحلّفهنّ عن أمر رسول الله ﷺ له عمر بن الخطّاب[٢] وأَعْطُوا المشركين الّذين جاءكم نساؤهم مؤمناتٍ إذا علمتموهنّ مؤمناتٍ فلم ترجعوهنّ إليهم ما أنفقوا في نكاحهم إيّاهنّ من الصَّداق[٣] ولا جناح عليكم ولا حرج أن تتزوّجوهنّ إذا أعطيتموهنّ مهورهنّ[٤] ولا تُمْسكوا أيّها المؤمنون بِعِصَم الكوافر، وبحبال الزّوجات الكافرات[٥] وهذا تحريمٌ من الله عزّ وجلّ على عباده المؤمنين نكاح المشركات، والاستمرار معهنّ[٦] واسألوا أيها الأزواج المؤمنون ما أنفقتم مهوراً لزوجاتكم الّلاتي أصررن على الكفر، وليسأل الأزواج المشركون ما أنفقوا مهوراً لزوجاتهم الّلاتي أسلمن. ذلكم حكم الله تعالى، يحكم عزّ وجلّ بينكم أيّها المؤمنون وأيّها المشركون.والله تعالى عليمٌ لا يخفى عليه عزّ وجلّ شيء، حكيمٌ في أحكامه وفي كلّ شيء.

---

(١) فتح الباري ٦٣٧/٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١١٨/٨

(٣) تفسير الطّبري ٤٥/٢٨

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطّبري ٤٧/٢٨.

(٦) تفسير ابن كثير ١٢٠/٨

وإن سبقكم وانفلت منكم[1] أيّها المؤمنون شيءٌ من أزواجكم إلى الكفّار، فلم تحصلوا على ما أنفقتم عليهنّ من مهورٍ ولم يعطكم أزواجهنّ المشركون ما أنفقتم عليهنّ[2] فعاقبتم وأصبتم غنيمةً من قريش أو من غيرهم[3] فأعطوا أيّها المؤمنون الأزواج المؤمنين من الغنيمة مثل ما أنفقوا[4] واتّقوا الله تعالى الّذي أنتم به مؤمنون، واخشوه، وراقبوه في السِّرِّ والعلانية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

يا أيّها النّبيّ الكريم، والرّسول العظيم، إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله تعالى شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهنّ ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ، فلا يُلحقِن بأزواجهنّ غير أولادهم[5] ووصف بصفة الولد الحقيقيّ فإنّ الأمّ إذا وضعته سقط بين يديها ورجليها[1] ولا يعصينك في معروفٍ وهو ما وافق طاعة الله كترك النّياحة، وتمزيق الثّياب،

---

(١) الكشاف٣/٢٢٣.

(٢) انظر تفسير الطّبري ٢٨/٤٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٨/١٢١.

(٤) انظر تفسير الطّبري ٢٨/٥٠.

(٥) تفسير الطّبري ٢٨/٥١

(١) الجلالين .

وجزّ الشّعور، وشقّ الجيب، وخمش الوجه[٢] فبايعهنّ واستغفر لهنّ الله تعالى. إنّ الله تعالى غفورٌ ذنب من تاب توبةً نصوحاً، رحيمٌ به فلا يعذّبه وقد هداه إلى التّوبة وقبلها منه .

وفحوى الآية الكريمة هو الّذي أخذه النّبيّ ﷺ على من حضر العقبة الأولى، وكانوا اثني عشر رجلاً فيهم عبادة بن الصّامت ﷺ [٣].

لقد أوحت المعاني السّابقة بالقصيدة التّالية :

(٢) الجلالين وانظر فتح الباري ٦٣٧/٨ حديث رقم ٤٨٩٢

(٣) انظر فتح الباري ٦٣٧/٨ حديث رقم ٤٨٩٤ وتفسير ابن كثير ١٢٤/٨